



تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٤) ﴿الرَّكُنْتُ أَحْكَمَتَّ ۚ إِنَّهُ ثُمَّ فَضَّلْتَنِي مِنْ لَدُنِّكَ حَكِيمٌ خَيْرٌ
 ٠ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ٠ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ
 تَوْبُوا إِلَيْهِ يُعْطِيَهُمْ مِّنْعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ
 وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ٠ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول تعالى: هذا ﴿رَكُنْتُ﴾ عظيم، ونزل كريم
 ﴿أَحْكَمَتَّ ۚ إِنَّهُ﴾ أي: أتقنت وأحسنت، صادقة أخبارها،

عادلة وأمرها ونواهيها، فصيحة ألفاظه بهية معانيه.

﴿ثُمَّ قِيلَتْ﴾ أي: ميزت وبينت بياناً في أعلى أنواع البيان، ﴿وَمِن لَّدُنَّ حَكِيمٍ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته ﴿خَيْرٍ﴾ مطلع على الظواهر والبواطن.

فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير، فلا تسأل بعد هذا عن عظمته وجلالته واشتماله على كمال الحكمة، وسعة الرحمة. وإنما أنزل الله كتابه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: لأجل إخلاص الدين كله لله، وأن لا يشرك به أحد من خلقه.

﴿إِنِّي لَكَرُّ﴾ أيها الناس ﴿مِنَهُ﴾ أي: من الله ربكم ﴿نَذِيرٌ﴾ لمن تجرأ على المعاصي، بعقاب الدنيا والآخرة ﴿وَبَشِيرٌ﴾ للمطيعين لله، بثواب الدنيا والآخرة.

﴿وَإِن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ عن ما صدر منكم من الذنوب ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه، بالإجابة والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه.

ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال: ﴿يُنَبِّئُكُمْ مَّتَلَّعًا حَسَنًا﴾ أي: يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به وتتفنون.

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى وقت وفاتكم ﴿وَيُؤْتِي﴾ منكم ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي: يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره، ما هو جزاء لإحسانهم، من حصول ما يحبون، ودفع ما يكرهون.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن ما دعوتكم إليه، بل عرضتم عنه، وربما كذبتم به ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وهو يوم القيامة، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، فيجازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وفي قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كالدليل على إحياء الله الموتى، فإنه قدير على كل شيء^(١)، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى، وقد أخبر بذلك وهو أصدق القائلين، فيجب وقوع ذلك عقلاً ونقلاً.

(٥) ﴿أَلَّا إِلَهُهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَعْتُونَ يَنَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُبْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين، وشدة ضلالهم أنهم ﴿يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ﴾ أي: يميلونها ﴿لِيَسْتَخْفُوا﴾ من الله، فتقع صدورهم حاجبة لعلم الله بأحوالهم، وبصره لهيئاتهم.

قال تعالى - مبيهاً خطأهم في هذا الظن - ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَعْتُونَ يَنَابَهُمْ﴾ أي يتغطون بها، يعلمهم في تلك الحال التي هي من أخفى الأشياء.

بل ﴿يَعْلَمُ مَا يُبْرُونَ﴾ من الأقوال والأفعال ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ منها، بل ما هو أبلغ من ذلك، وهو: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها من الإرادات، والوسوس، والأفكار التي لم ينطقوا بها، سرّاً ولا جهراً، فكيف تخفى عليه حالكم، إذا ثبت صدوركم لستخفوا منه.

ويحتمل أن المعنى في هذا، أن الله يذكر إعراض المكذبين للرسول، الغافلين عن دعوته، أنهم - من شدة إعراضهم - ﴿يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ﴾ أي: يحدودبون، حين يرون الرسول ﷺ لئلا يراهم، ويسمعهم دعوته، ويعظهم بما ينفعهم، فهل فوق هذا الإعراض شيء؟!

ثم توعدهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم، وأنهم لا يخفون عليه، وسيجازيهم بصنيعهم.

(٦) ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: جميع ما دب على وجه الأرض، من آدمي أو حيوان بري أو بحري، فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم، فرزقها^(٢) على الله.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي: يعلم مستقر هذه الدواب، وهو: المكان الذي تقيم فيه، وتستقر فيه، وتأوي إليه، ومستودعها: المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئها، وعوارض أحوالها.

﴿كُلٌّ﴾ من تفاصيل أحوالها ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في اللوح المحفوظ المحتوي على جميع الحوادث الواقعة، والتي تقع في السموات والأرض. الجميع قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته، ووسعها رزقه. فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علماً بذواتها، وصفاتها.

(٨،٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ يَنُوبُكُمْ أَنْتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَكِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَعْرُوفُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَلَكِن آخِرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابِ إِنَّ أُمَّتَهُمْ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ ۚ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يخبر تعالى أنه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وأولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة ﴿و﴾ حين خلق السموات والأرض ﴿كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ فوق السماء السابعة.

فبعد أن خلق السموات والأرض، استوى عليه، يدبر

(١) في ب: فإنه على كل شيء قدير. (٢) في ب: فرزقهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٢

سُورَةُ هٰودٍ

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
 وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ
 عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ
 إِنَّا لَنُكْفِرُكُم بِمَا كُفَرْتُمْ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُكُمْ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخْرَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى
 أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ الْيَوْمَ بِآيَاتِهِمْ لَيْسَ
 مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾
 وَلَئِنْ أذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ
 لَيَكْفُرُ بِهَا كَفُورًا ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ
 مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا ﴿١٠﴾
 إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
 وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ
 وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْجَاءٌ
 مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

الصَّلَاحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ يخبر تعالى عن
 طبيعة الإنسان، أنه جاهل ظالم، بأن الله إذا ذاقه منه رحمة،
 كالصحة والرزق والأولاد، ونحو ذلك، ثم نزعها منه، فإنه
 يستسلم لليأس، ويتقاد للقتوط، فلا يرجو ثواب الله، ولا
 يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلها أو خيرا منها عليه.

وأنه إذا ذاقه رحمة من بعد ضراء مسته، أنه يفرح ويطير،
 ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير، ويقول: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي
 إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا﴾ أي: فرح^(٢) بما أوتي مما يوافق هوى نفسه،
 فخور بنعم الله على عباد الله، وذلك يحمله على الأشر والبطر
 والإعجاب بالنفس، والتكبر على الخلق، واحتقارهم
 وازدراءهم، وأي عيب أشد من هذا؟!.

وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله
 وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده، وهم الذين صبروا
 أنفسهم عند الضراء فلم ييأسوا، وعند السراء فلم يبطروا،
 وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات.

(١) كذا في ب، وفي أ: أشد الكذب. (٢) في ب: يفرح.

الأمر، ويصرفها كيف شاء من الأحكام القدرية، والأحكام
 الشرعية.

ولهذا قال: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي:
 ليمتحانكم، إذ خلق لكم ما في السموات والأرض بأمره
 ونهيه، فينظر أيكم أحسن عملا.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «أخلصه وأصوبه».

قيل: يا أبا علي: «ما أخلصه وأصوبه»؟. فقال: إن العمل
 إذا كان خالصا، ولم يكن صوابا، لم يقبل. وإذا كان صوابا،
 ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا.

والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون
 متبعا فيه الشرع والسنة. وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ
 الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ
 يَتَزَلَّى الْأَمْثِرَ بَيْنَهُنَّ لِيُعَلِّمَهُنَّ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ
 بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فالله تعالى خلق الخلق لعبادته، ومعرفة
 بأسمائه وصفاته، وأمرهم بذلك. فمن انقاد وأدى ما أمر به،
 فهو من المفلحين، ومن أعرض عن ذلك، فأولئك هم
 الخاسرون، ولا بد أن يجمعهم في دار يجازيهم فيها على ما
 أمرهم به ونهاهم.

ولهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزاء، فقال: ﴿وَلَئِنْ
 قُلْتُمْ إِنَّا لَنُكْفِرُكُم بِمَا كُفَرْتُمْ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا
 إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: ولئن قلت لهؤلاء، وأخبرتهم بالبعث بعد الموت، لم
 يصدقوك، بل كذبوك أشد التكذيب^(١)، وقدحوا فيما جئت
 به، وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ألا وهو الحق
 المبين.

﴿وَلَئِنْ أَخْرَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ أي: إلى وقت
 مقدر فبتأطوه، لقالوا من جهلهم وظلمهم ﴿مَا يَحْسِبُهُ﴾
 ومضمون هذا تكذيبهم به، فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم
 عاجلا، على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب، فما أبعد
 هذا الاستدلال

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ فيتمكنون
 من النظر في أمرهم.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من
 العذاب، حيث تهاونوا به، حتى جزموا بكذب من جاء به.

(٩-١١) ﴿وَلَئِنْ أذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ
 إِنَّهُ لَيَكْفُرُ بِهَا كَفُورًا﴾ وَلَئِنْ أذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتْهُ
 لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا ○ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا

كان القلح لا مستند له، ولا يقدح فيما دعا إليه، وأنه لا يضيق صدره، بل يطمئن بذلك، ماضيًا على أمره، مقبلًا على شأنه، وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للأدلة التي يختارونها، بل يكفي إقامة الدليل السالم عن المعارض، على جميع المسائل والمطالب.

وفيها أن هذا القرآن معجز بنفسه، لا يقدر أحد من البشر أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور من مثله، بل ولا بسورة من مثله، لأن الأعداء البلغاء الفصحاء تحداهم الله بذلك، فلم يعارضوه، لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك.

وفيها: أن مما يطلب فيه العلم، ولا يكفي غلبة الظن، علم القرآن، وعلم التوحيد، لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ إِنَّ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

(١٦، ١٥) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَزَقَهَا نَوْفٍ إِيَّاهُمْ أَصْلَحْنَاهُمْ فِيهَا وَهَرَفْنَا لَآ يُحْسِنُونَ﴾ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُومًا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَزَقَهَا﴾ أي: كل إرادته مقصورة على الحياة الدنيا، وعلى زيتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة، من الذهب، والفضة، والخيل المسومة، والأنعام والحرث، قد صرف رغبته وسعيه وعمله في هذه الأشياء، ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئًا، فهذا لا يكون إلا كافرًا، لأنه لو كان مؤمنًا لكان ما معه من الإيمان يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا، بل نفس إيمانه وما تسير له من الأعمال، أثر من آثار إرادته الدار الآخرة.

ولكن هذا الشقي الذي كأنه خلق للدنيا وحدها ﴿نَوْفٍ إِيَّاهُمْ أَصْلَحْنَاهُمْ فِيهَا﴾ أي: نعطيهم ما قسم لهم في أم الكتاب من ثواب الدنيا. ﴿وَهَرَفْنَا لَآ يُحْسِنُونَ﴾ أي: لا يتقصون شيئًا مما قدر لهم، ولكن هذا انتهى نعيمهم.

﴿أَوْلَيْكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ خالد بن فيها أبدًا، لا يُفْتَر عنهم العذاب؛ وقد حرموا جزيل الثواب. ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي: في الدنيا، أي: بطل واضمحل ما عملوه مما يكيدون به الحق وأهله، وما عملوه من أعمال الخير التي لا أساس لها، ولا وجود لشرطها، وهو الإيمان.

(١٧) ﴿فَأَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ رَبِّنَا مِن رَّبِّهِمْ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِيمَانًا وَرَحْمَةً أَوْلَيْكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ (١) في ب: أي أنه قد افتراه. (٢) في ب: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ من عند الله. والجملة الأخيرة قد شطبت في أ.

﴿أَوْلَيْكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم كل محذور ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الفوز بجنت النعيم التي فيها ما تشتهي الأنفس، وتلد الأعين.

(١٢-١٤) ﴿فَلَمَّا كَانَ تَارِكًا بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاقِبُ بِهِ صَدْرِكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَرَيْنَهُ قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَأَدْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يقول تعالى - مسلبيًا لنبيه محمد ﷺ عن تكذيب المكذبين - : ﴿فَلَمَّا كَانَ تَارِكًا بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاقِبُ بِهِ صَدْرِكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ﴾، أي: لا ينبغي هذا لملكك، أن قولهم يؤثر فيك، ويصدق عما أنت عليه، فتترك بعض ما يوحي إليك، ويضيق صدرك لتعتهم بقولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾. فإن هذا القول ناشئ من تعنت، وظلم، وعناد، وضلال، وجهل بمواقع الحجج والأدلة. فامض على أمرك، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة التي لا تصدر إلا من سفيه، ولا يضق لذلك صدرك.

فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟ أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحًا يؤثر فيه، ويتقص قدره، فيضيق صدرك لذلك؟.

أم عليك حسابهم، ومطالب بهدائهم جبرًا؟. ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فهو الوكيل عليهم، يحفظ أعمالهم، ويجازيهم بها أتم الجزاء.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَرَيْنَهُ﴾ أي: افتري محمد هذا القرآن؟. فأجابهم بقوله: ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ ﴿فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَأَدْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه قد افتراه^(١)، فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة، وأنتم الأعداء حقًا، الحريصون بغاية ما يمكنكم على إبطال دعوته، فإن كنتم صادقين فأتوا بعشر سور مثله مفتريات. ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ على شيء من ذلكم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [من عند الله]^(٢)، لقيام الدليل والمقتضى، وانتفاء المعارض.

﴿وَأَنَّ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: واعلموا أنه لا إله إلا هو أي: هو وحده المستحق للألوهية والعبادة ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: متقادون لألوهيته، مستسلمون لعبوديته.

وفي هذه الآيات إرشاد إلى أنه لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصدده اعتراض المعارضين، ولا قدح القادحين، خصوصًا إذا

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٢٣

سُورَةُ هُودٍ

أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ
وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَعْطَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ
﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ
مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ
عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ يَشَاهِدُ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ
مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ
مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَارُ مَوْعِدَهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ
مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ
عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلْأَشْهَدُ هَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَىٰ
رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

الناس ظلماً ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ليجازيهم
بظلمهم، فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد ﴿يَقُولُ
الْأَشْهَدُ﴾ أي: الذين شهدوا عليهم بافترائهم وكذبهم:
﴿هَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾
أي: لعنة لا تقطع، لأن ظلمهم صار وصفاً لهم ملازماً، لا
يقبل التخفيف.

ثم وصف ظلمهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فصدوا
بأنفسهم عن سبيل الله، وهي سبيل الرسل التي دعوا الناس
إليها، وصدوا غيرهم عنها، فصاروا أئمة يدعون إلى النار.
﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي: سبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ أي: يجتهدون في
ميلها، وتشيينها، وتهجينها، لتصير عند الناس غير مستقيمة،
فيحسون الباطل ويقبحون الحق، قبحهم الله ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
كَافِرُونَ﴾.

(١) كذا في ب، وفي أ: أنزل.

مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يذكر تعالى حال رسوله
محمد ﷺ ومن قام مقامه من ورثته القائمين بدينه، وحججه
الموقنين بذلك، وأنهم لا يوصف بهم غيرهم ولا يكون أحد
مثلهم، فقال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ بالوحي الذي
أنزل ﴿الله فيه المسائل المهمة، ودلائلها الظاهرة، فتيقن تلك
البينة.

﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي: يتلو هذه البينة والبرهان برهان آخر ﴿شَاهِدٌ
مِنْهُ﴾ وهو شاهد الفطرة المستقيمة، والعقل الصحيح، حين
شهد حقيقة ما أوحاه الله وشرعه، وعلم بعقله حسنه، فازداد
بذلك إيماناً إلى إيمانه.

﴿و﴾ ثم شاهد ثالث وهو ﴿كِنْتُ مُوسَى﴾ التوراة التي
جعلها الله ﴿إِمَامًا﴾ للناس ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم، يشهد لهذا القرآن
بالصدق، ويوافقه فيما جاء به من الحق.

أي: أفمن كان بهذا الوصف، قد تواردت عليه شواهد
الإيمان، وقامت لديه أدلة اليقين، كمن هو في الظلمات
والجهالات ليس بخارج منها؟!

لا يستتون عند الله، ولا عند عباد الله ﴿أُولَئِكَ﴾ أي:
الذين وفقوا لقيام الأدلة عندهم ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن حقيقة،
فيشمر لهم إيمانهم كل خير في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي: القرآن ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: سائر
طوائف أهل الأرض، المتحزبة على رد الحق ﴿فَالْتَارُ
مَوْعِدُهُ﴾ لا بد من وروده إليها ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ أي: في
أدنى شك ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يُؤْمِنُونَ﴾ إما جهلاً منهم وضلالاً، وإما ظلماً وعناداً وبغياً،
وإلا فمن كان قصده حسناً، وفهمه مستقيماً، فلا بد أن يؤمن
به، لأنه يرى ما يدعوه إلى الإيمان من كل وجه.

(١٨-٢٢) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ
يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلْأَشْهَدُ هَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَىٰ
رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ○ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي
الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا
كَانُوا يَسْتَبْشِرُونَ أَسْعَوْا وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ ○ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ○ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ
الْخَسِرُونَ﴾ يخبر تعالى أنه لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾

ويدخل في هذا كل من كذب على الله، بنسبة الشريك له، أو
وصفه بما لا يليق بجلاله، أو الإخبار عنه بما لم يقل، أو
ادعاء النبوة، أو غير ذلك من الكذب على الله، فهو لاء أعظم